

ملف القدس

الاستيطان الإسرائيلي

في منطقة القدس*

نظمي الجعبة**

مقدمة

تبادل الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي الاتهامات بشأن اندلاع الانتفاضة الحالية، وتعالى الأصوات عالمياً لوقف العنف المتبادل، في الوقت الذي تلاشت الأصوات التي تطالب بوقف العنف الاستراتيجي الذي يلتهم الأرض، ويغير الديموغرافيا، ويشكل عائقاً قد لا يكون من الممكن عكسه.

يفترض البعض أن المفاوضات المقبلة ستبدأ من حيث انتهت المفاوضات في كامب ديفيد وطابا وكأن شيئاً لم يكن. إن في هذا الافتراض الكثير من اللاواقعية وتجاهل نتائج الصدمات على أرض الواقع من جهة، ونتائج عمل الجرافات الإسرائيلية من جهة أخرى. قد لا يكون من المبالغة القول إنه بات من المتأخر إعادة طرح مشروع الدولة الوطنية المستقلة وعاصمتها القدس؛ ذلك بأن الفهم الواقعي للأنشطة الإسرائيلية سيقودنا إلى الاستنتاج أن إسرائيل تعمل جاهدة على تقويض فكرة الاستقلال الفلسطيني، أو على الأقل تقويض إمكان قيام دولة فلسطينية قادرة على الحياة. وقد يكون من قبيل استباق الأمور التنبؤ بأن النتيجة النهائية لهذه التطورات هي إيجاد مناطق ذات حكم محلي (townships)، أو في أفضل الأحوال كانتونات منعزلة، غير قادرة على الحياة ولا تملك أي إمكان لتوفير الحياة الكريمة لسكانها، بحيث تبحث شرقاً أو غرباً عن تبعية سياسية تعينها على البقاء.

(* المصدر: *Jerusalem Quarterly File*, no. 16, November 2002, pp. 5-11.

والكاتب يشكر زملاءه في طاقم القدس التقني التابع لدائرة المفاوضات على العمل المشترك الذي

قاموا به؛ وهو ما أتاح وضع هذه المقالة. (نهاية تشرين الأول/أكتوبر 2002)

(**) أستاذ في جامعة بيرزيت، متخصص بالدراسات الإسلامية.

إن ما يجري على أرض الواقع اليوم أخطر جداً مما أنتجته عملية الاستيطان برمتها منذ أكثر من ثلاثة عقود.

تتويج الحركة الاستيطانية

اتضحت معالم المشروع الإسرائيلي في القدس ومحيطها الآن بشكل لم يسبق له مثيل منذ سنة 1967. وقد نجم هذا المشروع عن سلسلة من الخطط المتلاحقة التي تداخلت زمنياً وجغرافياً، من دون أن يكون هناك رابط واضح بينها، وتكلفت باللمسات الأخيرة التي شرع في تنفيذها منذ عامين. وقد استغل الإسرائيليون انشغال العالم بأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وما تبعها من حرب على أفغانستان، وتحضيرات للحرب على العراق، كي يحكموا الربط بين مختلف الخطط السابقة.

عزل القدس

الطوق الخارجي (The Outer Ring)

ويعتبر من أخطر الأطواق على الإطلاق، لأنه سيجعل الوصول الفلسطيني من باقي أنحاء الضفة الغربية إلى القدس شبه مستحيل، وسيعزل القدس عن باقي الضفة الغربية، وسيحول المناطق الفلسطينية المتصلة بالقدس (الواقعة خارج الحدود البلدية) إلى جزر محصورة بين الأطواق الاستيطانية، كما سيفقد هذه المناطق مقومات وجودها الاقتصادي، وخصوصاً بالقرب من بيت لحم حيث يجري تطوير فنادق ومناطق سياحية على حدودها، وذلك كي لا يعتمد السياح في المستقبل إلى المبيت في بيت لحم.

1 - الجنوب: يبدأ هذا المخطط بعزل منطقة بيت لحم عن جنوبها بسلسلة مستعمرات كتلة عتسيون التي تتكون من مستعمرة بيتار عيليت الواقعة بين قريتي وادي فوكين ونحالين العربيتين، والتي خصصت للمستوطنين المتدينين (أتباع حركة شاس) وتتمدد في اتجاه الغرب لتتصل في المستقبل القريب بمنطقة هداسا، طامسة بذلك الخط الأخضر.

أمّا المستعمرة الثانية في الكتلة فهي كفار عتسيون بكل فروعها. وتعتبر هذه المستعمرة أقدم المستعمرات الواقعة إلى الجنوب من بيت لحم، وتمتد حتى طريق قمم الجبال الواصلة بين القدس والخليل، لتبدأ عندها مستعمرة إفرات التي تحتل سلسلة من قمم الجبال من الشمال إلى الجنوب مغلقة الطريق بين بيت لحم والخليل، وحائلة دون إمكان تطور منطقة بيت لحم في اتجاه الجنوب.

وتكتمل سلسلة الكتلة شرقاً بمستعمرة تكواع، التي لم تكن جذابة بما فيه الكفاية بسبب بعدها شرقاً وصعوبة اتصالها بالخط الأخضر، لذلك يجري الآن ربطها بطريق سريع من الجنوب إلى الشمال (طريق زعترة الالتفافية) في اتجاه شرق بيت ساحور ليوصلها إلى مستعمرة هار حوما (جبل أبو غنيم) وبطريق الطوق الشرقي؛ وبهذا سيتم ربط مستعمرة تكواع وخلال دقائق معدودة بالقدس (شرقها وغربها) لتصبح أكثر جاذبية للاستيطان. كما ستقوم طريق زعترة الالتفافية بخنق بلدة بيت ساحور وبجعل إمكان توسعها إلى الشرق مستحيلاً، وتوقف توسع قرיתי زعترة والعبيدية في اتجاه الغرب، فتحول بذلك البلدة والقريتين إلى مناطق منفصلة. وباكتمال الطرق وتمدد المستعمرات (ضمن مخططاتها الهيكلية التوسعية)، ستتحول منطقة بيت لحم إلى جزيرة شبه معزولة ومحصورة بين طوق خارجي كبير وطوق داخلي صغير، ولا تمتلك مناطق كفاية لتوسعها المستقبلي.

2 - الشرق: يتكون الطوق الشرقي من مستعمرات كيدار، ومعاليه أدوميم، وميشور أدوميم، وكفار أدوميم (كتلة مستعمرات معاليه أدوميم). وقد جرى ربط هذه المستعمرات بعضها ببعض، وسيتم ربطها بطريق الطوق الشرقي. كما انتهى العمل في النفق الذي يربط هذه الكتلة بشارع رقم واحد، الذي يفصل/ يصل بين القدس الشرقية والقدس الغربية، والذي يمر تحت جبل المشارف (جبل سكوبس).

وبانتهاء اللمسات الأخيرة (خلال الأسابيع المقبلة) يمكن الوصول من معاليه أدوميم إلى القدس الغربية خلال أقل من خمس دقائق بلا عوائق. يسكن الآن في هذا التجمع أكثر من 35,000 مستوطن (نحو 30,000 منهم في مستعمرة معاليه أدوميم وحدها). ولدى هذا التجمع قدرة هائلة على التوسع بفضل المخططات الهيكلية التي تصله بغور الأردن والبحر الميت تقريباً، الأمر الذي يعني زيادة في عدد السكان قد تصل إلى 15 ضعفاً.

أما أخطر مخططات الطوق الشرقي فهو ما اصطلح على تسميته مخطط E1، الذي يهدف إلى ملء الفراغ المتبقي في المنطقة الشرقية، وهو الفراغ الواقع بين عناتا والزعيم والعيزرية من جهة وبين كتلة مستعمرات معاليه أدوميم من جهة أخرى. ويشتمل مخطط E1 على مناطق صناعية تكنولوجية وفنادق ومناطق خدمات تجارية متنوعة، بالإضافة إلى مناطق سكنية. ويعتمد هذا المخطط على تعزيز مكانة كتلة مستعمرات معاليه أدوميم ووصلها بالنفق المار تحت جبل المشارف، ليكتمل المشروع لاحقاً بإقامة مستعمرات جديدة إلى الشمال الشرقي من جبل الطور كي تحد مخيم شعفاط من الجنوب، كما سيحقق

خندقاً كلياً لمناطق العيزرية وأبو ديس والزعيم وعناتا، ويمنعها من التوسع في اتجاه الشرق. ومن المعلوم أن هذه المناطق تشكل الإطار الحيوي لتطوير القدس العربية، وخصوصاً لتطوير مناطق صناعية وتجارية مستقبلية. إن إغلاق البوابة الشرقية لمنطقة القدس يعتبر من أخطر المشاريع التي بالتأكيد ستقوض الأساس الجغرافي لعملية السلام (الأرض في مقابل السلام)، لأنها ستفصل شمال الضفة عن جنوبها، وستخندق القدس وتمنع تواصلها مع الأردن.

3 - الشمال: تتصل كتلة المستعمرات الشرقية (كتلة معاليه أدميم) بكتلة مستعمرات بنيامين (شمالي شرقي القدس)، التي تشكل جزءاً من الطوق الشمالي. لكن إسرائيل لا تستطيع إكمال التواصل بينهما بسبب المناطق العربية الواصلة بين القدس ورام الله، لذلك عمدت إلى إنشاء كتلتين مستعمرات: الأولى كتلة بنيامين المكونة من مستعمرات أمون، وأدام، وشاعر بنيامين، وكوخاف يعقوف، وبساغوت. وتتصل هذه المستعمرات بعضها ببعض من خلال الطريق الالتفافية الشرقية، ويجري الانتهاء من ربطها بطريق الطوق الشرقي وطريق الطوق الشمالي. وقد نجحت هذه المستعمرات في منع تطور مدينة البيرة شرقاً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى حزما التي خُنقت بين الطوقين الخارجي والداخلي. وعبر الطريق السريع، الفاصل بين الرام وقلنديا، يجري ربط كتلة بنيامين بمنطقة عطاروت الصناعية (جزء صغير من الطريق لم يجر تعبيده حتى الآن بسبب الانتفاضة وإغلاق مطار قلنديا)، المتصلة الآن بواسطة طرق سريعة بطريق تل أبيب السريع، وبطريق الطوق الغربي أيضاً، المار إلى الغرب من بيت حنينا وشعفاط (اكتمل العمل فيه ويجري التحضير لافتتاحه). كما تتصل بكتلة مستعمرات غفعون (شمالي غربي القدس)، المكونة من مستعمرات غفعات زئيف، وغفعون، وراموت، وهار أدار، وهار شموئيل، بالإضافة إلى معسكر عوفر (إلى الغرب من رافات) ومطار قلنديا. وهذا المشروع قابل للتوسع السريع بسبب ربطه بالقدس الغربية من خلال طريق الطوق الغربي، وكذلك ربطه بمدينة موديعين الناشئة، وخصوصاً أن العمل جار على توسيع المستعمرات في هذه المنطقة ومدّها غرباً على امتداد الطريق السريع (طريق القدس - تل أبيب الشمالي). إن البعد الاستراتيجي لهذه المنطقة يكمن، لا في تطويق القرى الفلسطينية الواقعة إلى الشمال الغربي من القدس وعزلها عن مدينة القدس فحسب، بل أيضاً في حصرها في المنطقة الواقعة بين طريق القدس - تل أبيب السريع الشمالي، وطريق القدس - تل أبيب السريع الجنوبي (باب الواد)

لتوسيع الممر الضيق الذي كان يربط القدس الغربية بالسهل الساحلي حتى سنة 1967.

الطوق الداخلي (The Inner Ring)

تقع مستعمرات هذا الطوق في معظمها داخل حدود بلدية القدس بعد توسيعها سنة 1967، وهي تهدف في الأساس إلى وقف توسع القدس العربية، وضمان عدم تطورها، وفرض واقع ديموغرافي يضمن تفوق الإسرائيليين عددياً، لا في "القدس الموحدة" فحسب، بل في القدس العربية أيضاً.

1 - الجنوب: يتشكل الطوق الداخلي الجنوبي من مستعمرة غيلو، وغفعات همتوس، وهار حوما (جرى إسكانها بأكثر من 100 عائلة حتى الآن)، وتالبيوت مزراح. وهذه المستعمرات تعزل القدس عن منطقة بيت لحم، ويكتمل هذا العزل عبر توسيع مستعمرة هار حوما، ويتعزز أيضاً بربطها بطريق الطوق، كما ساهمت في حصر منطقة بيت لحم بين الطوقين الخارجي والداخلي. أمّا الفجوة المتبقية في منطقة جبل المكبر والسواحة الغربية (جنوبي شرقي القدس) فيجري عزلها بواسطة طريق الطوق، وتحضيرها للاستيطان كي يتم ربطها شرقاً بمستعمرتي كيدار ومعاليه أدوميم، كجسر يربطها بهار حوما.

2 - الشمال: لقد جرى قطع التواصل الجغرافي للبلدة القديمة والأحياء العربية شمال القدس (شعفاط وبيت حنينا الواصلتان بين القدس ورام الله) عبر التلة الفرنسية ورامات إشكول، ومن ثم تعزيز القطع عبر ريخش شعفاط وبيسغات زئيف ونفي يعقوف.

3 - البلدة القديمة: بعد السيطرة على حارة اليهود داخل البلدة القديمة وتوسيعها في كل الاتجاهات انتقل الاستيطان إلى الأحياء الأخرى. وقد وصل عدد العقارات التي جرى السيطرة عليها خارج حارة اليهود الموسعة إلى أكثر من 80 عقاراً، وما زال العمل جارياً للسيطرة على المزيد من العقارات داخل أسوار البلدة. وتتجه المخططات الاستيطانية إلى تعزيز وجود المستوطنين في مناطق متعددة، أكبرها أرض برج اللقلق (في الزاوية الشمالية الشرقية للبلدة القديمة) حيث يجري التخطيط لبناء عشرات الوحدات السكنية. أمّا المنطقة الثانية فهي أرض الصبرة (امتداد سوق الخواجات التي تهدمت جرّاء زلزال سنة 1927، ولم يجر إعادة ترميمها، حيث من المتوقع عن طريقها ربط حارة اليهود الموسعة بالبويرة الاستيطانية في عقبة الخالدية مستعملين لهذا الغرض سطح سوقي العطارين واللحامين. كما تتعرض المباني الواقعة في منطقة باب الخليل لضغط استيطاني كبير،

مستغلين بذلك الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تتعرض لها المشاريع الاقتصادية الصغيرة في البلدة القديمة منذ فترة تزيد على عامين، ورزوح كثير منها تحت طائلة الديون، وذلك في محاولة لربط منطقة باب الخليل بدير مار يوحنا، الذي كان يسكنه أكثر من 40 عائلة فلسطينية، والذي تحول بفضل تحايلات قانونية معروفة إلى بؤرة استيطانية بالقرب من كنيسة القيامة.

4 - محيط البلدة القديمة: بعد الانتهاء من الأطواق الخارجية يجري التركيز في محيط البلدة القديمة في عدة مواقع. فقد جرى الانتهاء من البؤرة الاستيطانية في رأس العمود، ويجري التحضير لضم عمارة الشرطة القريبة لها، حيث ستنقل محطة الشرطة إلى معاليه أدوميم، وبذلك سيتم توسيع هذه المستعمرة الكائنة وسط حي عربي. ويجري في الوقت ذاته، وضمن حركة متسارعة، التحضير لتوسيع الحي الاستيطاني في الشيخ جراح (شمعون الصديق)، حيث سيتم بناء ما مجموعه نحو 200 وحدة سكنية، وسيجري توسيعه في اتجاه الشمال ليرتبط بالجامعة العبرية وطريق النفق من الجهة الغربية. أما المجمع الاستيطاني الآخر فيهدف إلى تعزيز الاستيطان في سلوان/ وادي حلوة (مستعمرة عير دافيد)، وذلك بالبناء على قطعة أرض من عدة دونمات تبعد عن السور الجنوبي عشرين متراً (تستخدم الآن موقفاً للسيارات). وأما الموقع الأخير، المعروف لنا حتى الآن، فهو مشروع موسكوفيتش على السفح الغربي الجنوبي لجبل أبو ديس، وسيتم عزز إمكان بناء هذه المستعمرة حين يتم الانتهاء من مشروع طريق الطوق الشرقي، إذ ستقع المستعمرة على طرفه مباشرة، وهو ما يعني ربطها بالقدس الغربية وبمعاليه أدوميم مباشرة. وستشكل هذه المستعمرة جسراً لإغلاق الفجوة المتبقية في الجنوب الشرقي للبلدة.

طريق الطوق (The Ring Road)

يلتف هذا الطريق على امتداد حدود بلدية القدس الحالية، ويربط جميع المستعمرات المحيطة بالقدس الغربية بعضها ببعض، ويربطها بالقدس الغربية. كما يعزز عملية فصل الأحياء العربية خارج حدود البلدية عن مدينة القدس كما هو الحال بالنسبة إلى العيزرية وأبو ديس والزعيم وعناتا وحزما والرام والجيب وبير نبالا وبيت حنينا (القرية القديمة المعزولة منذ الآن عن أي امتداد جغرافي). وستتحول هذه البلدات والقرى إلى جزر محصورة مفصولة عن امتدادها الحضري. كما أن هذا الطريق سيعزز عملية الاستيطان ومصادرة الأراضي على طرفيه. ويذكر أن أغلبية هذا الطوق أنجزت إلا في المنطقة

الشرقية، حيث ستنتهي فترة الاعتراضات على شقه في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر الجاري. وسيتم خلال الفترة المقبلة هدم نحو 100 بيت عربي. وسيوجد طريق الطوق الشرقي منطقة ضجيج هائلة لسكان أبو ديس والعيزرية، ولن يستفيدوا منه، لأنهم سيمنعون من استعماله، هذا عدا مساحات الأراضي التي سيلتھمها، سواء لغرض شقه أو لحزامه "الأمني".

الـسور "الأمني" (The «Security» Wall)

على الرغم من عدم وضوح الصورة والامتداد النهائي للسور في منطقة القدس، فإنه يهدف إلى تعزيز عزل القدس عن امتداداتها في الضفة الغربية، وسيجعل الدخول إلى المدينة محصوراً بثلاثة مداخل فقط: بوابة الزعيم في الشرق، وبوابة جبل أبو غنيم في الجنوب (سيجري نقل معبر قبة راحيل، بعد إدخال القبة داخل السور، إلى الشرق بين هار حوما وبيت ساحور)، وبوابة قلنديا في الشمال. وعلى أغلب الظن سيجري ربط هذه البوابات بسور وأسلاك شائكة مكهربة وخنادق وكاميرات مراقبة. وفي الواقع، بدأ تنفيذ أجزاء مهمة من هذا السور في الجنوب والشرق والشمال الغربي والشمال، إلا أننا لا نستطيع الجزم كيف سيتطور هذا السور مع مرور الوقت، إذ هناك عدة مخططات له حتى الآن.

خاتمة

لم يعد المشروع الإسرائيلي لتقويض عملية السلام والقضاء على إمكان إيجاد حل لمعضلة القدس خافياً، كما اتضح من هذا العرض السريع المثبت بالخرائط والمعتمد على استقراء الخطط الإسرائيلية، سواء المشاريع الهيكلية أو ما يجري على أرض الواقع. إن اكتمال هذا المشروع بشكله النهائي سيستغرق فترة عامين أو ثلاثة أعوام، وعندها سيكون الحديث عن القدس عاصمة للدولة الفلسطينية متأخراً، بل يصبح من المستحيل الحديث عن دولة فلسطينية. ومن النتائج المرئية لهذه السياسة أن القدس العربية ستفقد كل إمكانات التطور، ولن يحصل سكانها على مساكن كافية، الأمر الذي سيؤدي إلى إفقارها وتدني مستوى الحياة فيها، واکتظاظ السكان في مناطق ضيقة مغلقة. كما أن عزلها عن محيطها الحيوي اقتصادياً سيؤدي إلى تفاقم الأزمة الاجتماعية وارتفاع نسبة الجريمة. كل هذا سيتم في ظل تطور مطرد في الخدمات ومستوى الحياة في القدس الغربية

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>